

ظاهرة الانتقال المخرّجي لأصوات: الضاد والقاف والكاف في لهجة محافظة طوباس الفلسطينية

The Phenomenon of Phonological Transilion for the Voices: Daad, Qaaf and Kaaf in the Accent of Palestinian Tubas Governorate

علي هنداوي¹، وسائد صوافطة*²

Ali Hendawy & Saed Sawafta

¹قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ، مصر. ²طالب دراسات عليا (دكتوراه)، فلسطين

*الباحث المراسل: te-saed@hotmail.com

تاريخ التسليم: (2016/2/16)، تاريخ القبول: (2016/12/1)

ملخص

تتغيًا هذه الدراسة تناول ظاهرة الانتقال المخرّجي التي طرأت على أصوات: الضاد والقاف والكاف في لهجة محافظة طوباس الفلسطينية، باعتبارها إحدى لهجات الريف الفلسطيني. وقامت هذه الدراسة بوصف تفصيلي للتطور التاريخي الذي أصاب الأصوات الثلاث أنفة الذكر، وتفسير تحفقاتها النطقية الناتجة عن انتقال مخرجها في اللهجة، وتأصيل تلكم التحفقات في اللهجات العربية القديمة، معتمدًا في ذلك كله على ما أرساه علماءنا القدامى الأجلاء في ثنايا مؤلفاتهم، وما توصل إليه درس الصوتي الحديث.

الكلمات المفتاحية: أصوات، لهجات فلسطينية، الانتقال المخرّجي.

Abstract

This study focus on the phenomenon of phonological transilion for the voices: daad, qaaf and kaaf in the accent of Palestinian Tubas Governorate which considered as Palestinian accent at rural areas. This study described the historical development for the previous three letters and interpretation of pronouncing transition of the phenology of the accent and rooting this inspections in the old Arabic accent by depending on the heritage of old Arab scientists their books and the modern phonological references.

Keywords: Audio Transmission Outlet, Palestinian Accents, Voice.

المقدمة

تعدُّ دراسة اللهجات العربيّة من أحدث الاتجاهات في البحوث اللغويّة، إذ أولى الدرس اللغوي المعاصر اهتماماً خاصاً بها، وأفرّد لدرسها حيزاً لا بأس به؛ انطلاقاً من أنّها تمثل تطوّراً لغويّاً تاريخياً يجب أن ترصد مظاهره وخواصه بشكلٍ دائمٍ، قبل أن تُطمس تلك اللهجات وبختفي أثرها، ويرى د. إبراهيم أنيس أنّ دراسة اللهجات قد نمت في «الجامعات الأوروبية خلال القرنين: التاسع عشر والعشرين، حتى أصبحت الآن عنصراً مهماً بين الدراسات اللغويّة الحديثة»⁽¹⁾.

ولدراسة اللهجات -في المقابل- أصولٌ قديمةٌ في التراث اللغويّ العربيّ، لكنّها لم ترق إلى مستوى العلم أو البحث المستقلّ، فما وصلنا من القدماء -في هذا المجال- لا يعدو كونه مجرد إشاراتٍ سريعة، وملاحظاتٍ عابرة تُذيلُ بها نهايات كتب التراث القديم؛ بقصد الإفادة منها في تفسير بعض ظواهر الفصحى. بل نظر نفرٌ من القدماء إلى بعض اللهجات على أنّها انحرافٌ عن اللّغة المثلى، ونسبوا إلى العامّة والسوقة، ورموا بعضها بالرداءة والمذمّة⁽²⁾. ولعلّ عزوف علماء اللّغة عن تقصي اللهجات، ودراستها يعود -كما ارتأى د. محمّد جواد النوري- إلى «اهتمامهم، الذي كان مُنصباً -أولاً- على دراسة اللّغة الفصحى وتراثها العريق، ولأنّهم كانوا يعتقدون -ثانياً- بأنّ مثل هذه الدراسات -لو فُيُضَ لها أنّ تنضج- من شأنها أن تبعدهم، وتبعد الناشئة -أيضاً- عن العربيّة الفصحى»⁽³⁾.

ولا يُدّ من الإشارة، بادئ ذي بدء، إلى أنّ اللهجات العربيّة في عصرنا الحاضر ما انبثقت إلا من اللهجات العربيّة القديمة، تلك اللهجات التي نشأت وترعرعت في أحضان الفصحى، واستمّدت منها كثيراً من خواصها الصوتيّة، والصرفيّة، والنحويّة، والدلاليّة. وقد احتفظت اللهجات الحديثة في الأعمّ الأغلب -بكثير من ظواهر اللهجات القديمة دون تغيير كبير، وهذا ما يلمسه الباحث في لهجة محافظة طوباس⁽⁴⁾ الفلسطينية موضوع الدراسة، تلك اللهجة التي

(1) إبراهيم أنيس: في اللهجات العربيّة، ص9.

(2) ينظر: السيوطي: المزهّر في علوم العربيّة وأنواعها، 211/1-212.

(3) محمّد جواد النوري: دراسة صوتيّة وصرفيّة للهجة مدينة نابلس الفلسطينيّة، المقدمة، (ح).

(4) طوباس محافظة فلسطينيّة، تقع في أقصى الشمال الشرقي للضفة الغربيّة؛ إذ يحدها من الشمال الشرقي مدينة بيسان المحتلّة، ومن الشمال الغربيّ مدينة جنين، أما من الجنوب فيحدها مدينة نابلس، ومن الشرق الحدود الأردنيّة، وذلك بمحاذاة نهر الأردن. ويعود أصل تسميتها إلى بلدة كنعانيّة قديمة، تُدعى "تاباص" بمعنى ضياء أو بهاء. وتعدّ طوباس كبرى محافظات الضفّة الغربيّة من حيث المساحة، إذ تبلغ مساحتها حوالي 500 كم². أما عدد سكانها فيبلغ حوالي ستين ألف نسمة في إحصاء 2012م، يعمل معظمهم في مهنة الزراعة، وتربطهم علاقات اجتماعيّة قويّة. وتعتبر طوباس سلّة الغذاء الفلسطينيّ، بما تنتجه من أنواع مختلفة من الخضراوات، والفواكه، والنباتات الطبيعيّة؛ فأراضيها خصبة صالحة للزراعة. أما لهجتها فتنتمي إلى لهجات الريف الفلسطينيّ، التي تشترك معها في كثير من الخواص اللّهيّة المميّزة لها. ينظر: الدبّاغ: بلادنا فلسطين، الجزء الثاني، القسم الثاني، ص443، وينظر كذلك: ما كتب حول محافظة طوباس في الموقع الإلكتروني: www.wikipedia.org

احتفظت بطواهر: الاستنطاء، والطَّمْطمانِيَّة، والكشكشِيَّة، والعنينة، والتَّلتلة، والإمالة، وتسهيل الهمز، وغيرها من الطَّواهر اللَّهجيَّة الصَّوتِيَّة القديمة، الَّتِي ما زالت ماثلةً إلى يومنا هذا.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ دراسة اللَّهجات العربيَّة الحديثة دراسةً علميَّة، ومعرفةً خواصِّها وظواهرها المميَّزة لها - هدفٌ يجدُّ الباحثون في حقل الدِّراسات اللُّغويَّة المعاصرة إلى تحقيقه؛ لما في ذلك من فوائدٍ جَمَّة. فالكشف عن واقع لهجة معينة في بيئة ما، والتَّعرُّف إلى ما أصابها من مظاهر التَّطوُّر أو التَّغيُّر، خلال رحلتها الطَّويلة، وربط تلك المظاهر بأسبابها، والعوامل الَّتِي تولَّدت عنها - هو في حدِّ ذاته عملٌ علميٌّ مشروعٌ، بل إنَّ نتائج مثل هذه الدِّراسات تكشف عن جوانبٍ يكتنفها الظُّلُم والغموض في اللَّهجات العربيَّة القديمة⁽¹⁾، فضلاً عن الاستفادة منها في تفسير ما يعرض من أمورٍ مُشكِّلة في أصوات العربيَّة، وصرْفها، ونحوها، وألفاظها⁽²⁾.

ولأجل الَّذي ذكرتُ سابقاً، فقد وجدتنِي قد يَمَّت شطرُ محافظة طوباس الفلسطينيَّة، أُفتش عن ظواهرها اللَّهجيَّة الصَّوتِيَّة، محاولاً الكشف عن بعض تلك الطَّواهر، وتسجيلها قبل أن يصيبها شيءٌ من التَّغيُّر والتَّطوُّر. ومن هنا كان اختياري لموضوع الدِّراسة الَّتِي جاءت بعنوان: «ظاهرة الانتقال المخرَّجي لأصوات الضاد والقاف والكاف في لهجة محافظة طوباس الفلسطينيَّة».

وقد أتبعْتُ في هذه الدِّراسة المنهجين الوصفيِّ والتاريخيِّ، إذ قمتُ بوصف هذه الظَّاهرة الصَّوتِيَّة، ثمَّ رصدتُ مظاهرها المتمثِّلة بانتقال مخرج بعض الأصوات في لهجة بيئة من بيئات الريف الفلسطينيِّ، وهي محافظة طوباس الفلسطينيَّة، ثمَّ قدَّمتُ تفسيراتٍ صوتيَّةً لهذه الظَّاهرة، مُحاولاً ربطها بجذورها التاريخيَّة في العربيَّة الفصحى واللَّهجات العربيَّة القديمة.

أمَّا منطقتُ الدِّراسة، فقد شملت مركز المحافظة -مدينة طوباس- وقراها، ولم يتطرق الباحث في هذه الدِّراسة إلى التَّجمُّعات البدويَّة⁽³⁾ والتَّجمُّعات في المُخيَّمات⁽⁴⁾؛ لأنَّ نطقهم مزيجٌ من عدَّة لهجات، ولا يحكمهم لسانٌ واحد؛ نظراً لاختلاف منابعهم الجغرافيَّة.

وقد أفادتْ هذه الدِّراسة من جملة من المؤلِّفات القديمة والحديثة، تلك الَّتِي عنيت بتناول اللَّهجات العربيَّة عموماً، واللَّهجات الفلسطينيَّة على وجه الخصوص، ومن ذلك كتاب: «اللَّهجات الفلسطينيَّة - دراسة صوتيَّة» للدكتور عبدالرؤوف خربوش، الَّذي تناول فيه اللَّهجات الفلسطينيَّة وأصواتها، وكيفيَّة نطقها بين البيئات الفلسطينيَّة: المدنيَّة، والريفِيَّة، والبدويَّة، وما حدث لبعض هذه الأصوات من تطوُّر وتغيُّر. وبحث بعنوان: «التَّحقُّقات النُّطقيَّة لصوتي الكاف والقاف في الدارجة الفلسطينيَّة» للدكتور سعيد شواهنة، الَّذي تناول فيه التَّحقُّقات النُّطقيَّة لصوتي الكاف والقاف على ألسنة الناطقين في البيئات الفلسطينيَّة الثلاث: المدنيَّة، والريفِيَّة، والبدويَّة، مع

(1) إبراهيم أنيس: في اللَّهجات العربيَّة، ص9.

(2) ينظر: كمال بشر: علم اللُّغة الاجتماعيِّ، ص197.

(3) التَّجمُّعات البدويَّة في محافظة طوباس تتركز في مناطق عدَّة، ومن أهمها منطقة المالح.

(4) يوجد في المحافظة مخيمٌ واحدٌ للاجئين الفلسطينيين هو مخيم الفارعة.

التأصيل اللّهي لهذه التّحقّقات، وتقديم التّفسيّرات الصّوتية لها في البيّنات المخرّجة. وبحث بعنوان: "صوت القاف بين كتب التراث والتحليل الصوتي الحديث" للدكتورة حليلة عمارة، ففي هذه الدراسة وازنت الباحثة بين ما ورد في كتب التراث، وما توصل إليه علماء اللّغة المعاصرون في وصف هذا الصوت.

كما أفادت من الدراسات الصّوتية القديمة؛ كذلك التي جاءت في "الكتاب"، و"شرح المفصل"، و"شرح الشافية"، و"المزهر"، و"النشر في القراءات العشر"، و"الرعاية"، وبعض كتب "الإبدال"، ومما قدمه علماء الأصوات المحدثون عربياً، ومستشرقين، ومنهم: (بروكلمان)، و(جان كانتينو)، و(إنو ليمان)، و(برجستراسر)، و(هنري فليش)، و(ماريو باي)، وإبراهيم أنيس، ورمضان عبدالتواب، وكمال بشر، وعبدالصبور شاهين، وسمير إستيتيه، كلّ في مؤلفاته، وأفادت كذلك ممّا تناوله بعض الدارسين المحدثين من لهجات قديمة؛ كلّهجة "تميم"، ولهجة "أسد". ومن مصادر ومراجع أخرى، أثبتّها في نهاية الدراسة.

هذا، وتتعرض اللّهجة -أية لهجة- بمرور الزمن، واختلاف البيئة التي تحيا فيها، إلى جملة من التّغيّرات التي تعترّي جوانبها المختلفة من صوتية، أو صرفية، أو تركيبية نحوية، فضلاً عن جانبها الدلالي الذي يتأثر كغيره من المستويات الأخرى بعامل التّغير⁽¹⁾. وهذا أمر بدهي؛ ذلك أنّ اللّغة أو اللّهجة كالكائن الحيّ يتعرّض كسائر الكائنات الحية إلى التّغير بفعل الزمن ومتطلّباته غير الثابتة، وهي كذلك «ظاهرة اجتماعية تحيا في أحضان المجتمع، وتستمدّ كيانها منه، ومن عاداته وتقاليده، وسلوك أفرادها، كما أنّها تتطوّر بتطوّر هذا المجتمع، تفرّق برفقته، وتتخطّ بانحطاطه»⁽²⁾.

ومن التّغيّرات⁽³⁾ التي تعتور النظام الصوتي -على سبيل المثال- «أن ينتقل الصّوت من مخرجه الأصليّ إلى مخرج آخر، فيستبدّل به أقرب الأصوات إليه في هذا المخرج الجديد»⁽⁴⁾. وغير خفيّ أنّ مثل هذا الانتقال المخرّجيّ قد أصاب بعض أصوات الفصحى، لذا جعل منه علماء الأصوات المحدثون انتقال مخرج أصوات عديدة؛ كالضّاد، والقاف، والطاء، والجيم ... إلخ. هذا، ويطلق على مثل هذه التّغيّرات المطلقة⁽⁵⁾، التي تلحق بالصّوت في جميع سياقاته حتّى ينتقل مخرجه إلى مخرج صوت آخر، مُصطلح "التّغيّرات التاريخية"، التي يقصد بها «تلك

(1) ينظر: محمّد جواد النوري: في التّطور الصوتي، ص2.

(2) رمضان عبد التّواب: التّطور اللّغوي، ص9.

(3) تنقسم التّغيّرات الصوتية إلى نوعين: تغيّرات تركيبية، وتغيّرات تاريخية. فالتّغيّرات التركيبية تصيب الأصوات نتيجة احتكاك بعضها مع بعض في الكلام. أمّا التّغيّرات التاريخية، فإنّها تصيب الأصوات نتيجة تطوّرها عبر السنين لسبب من الأسباب. ينظر: محمّد الأنطاكي: الوجيز في فقه اللّغة، ص251، أمانة الزعبي: التّغير التاريخي للأصوات، ص8.

(4) إبراهيم أنيس: الأصوات اللّغوية، ص114.

(5) ونعني بالمطلقة: أنّها إذا أصابت صوتاً ما، فإنّها لا تصيبه في تركيب بعينه، بل تصيبه في كلّ تركيب اللّغة أو اللّهجة. وهي لا تحدث إلاّ ببطء شديد، وخلال قرونٍ وأجيالٍ؛ نتيجة عوامل متعدّدة متشابكة: اجتماعية، ونفسية، وفسولوجية. ينظر: محمّد الأنطاكي: الوجيز في فقه اللّغة، ص276-277.

التغييرات التي تحدث من التحوّل في النظام الصوتي للغة، بحيث يصير الصوت اللغوي في جميع سياقاته صوتاً آخر»⁽¹⁾.

وكما هو معلوم، فإنّ تطوّر الصوت اللغوي بتغيير مخرجه «يكون بأحد طريقين: إمّا بانتقال المخرج إلى الورا أو إلى الأمام؛ باحثاً الصوت في انتقاله عن أقرب الأصوات شَبْهاً به من الناحية الصوتية»⁽²⁾. وبناءً عليه، فلدينا في لهجة طوباس الفلسطينية ثلاثة أصوات تعرّضت للتطوّر الصوتي، فانتقل مخرجها إلى الأمام، وهي: الضاد، والقاف، والكاف. وفيما يلي، سيتناول الباحث -وبشيءٍ من التفصيل- دراسة الانتقال المخرجي الذي أصاب هذه الأصوات:

أولاً: انتقال مخرج الضاد [d]

هذا الصوت غير موجود في اللهجة المدروسة، إذ انتقل مخرجه الأسناني اللثوي إلى الأمام قليلاً، باتجاه المخرج الأسناني، فأصبح يُنطق ظاءً [ð] أسنانيةً فصيحاً. وهذه أمثلة ذلك من اللهجة:

الكلمة نفسها في اللهجة		الكلمة في الفصحى	
[ðabi ']	ظَبْعٌ ←	[dabi ']	ضَبْعٌ
[ðurra]	ظُرَّةٌ ←	[durra]	ضُرَّةٌ (3)
[ðeef](4)	ظَيْفٌ ←	[dayf]	ضَيْفٌ
[riðe ']	رِظْعٌ ←	[raði ' a]	رَضْعٌ
[haamið]	حَامِظٌ ←	[haamid]	حَامِضٌ
[xaðð]	خَظٌّ ←	[xadð]	خَضٌّ

وصف علماء اللغة القدامى مخرج الضاد، فقالوا: «ومن بين أول حافة اللسان، وما يليها من الأضراس مخرج الضاد»⁽⁵⁾. أمّا مخرج الظاء، فقد حدّده بقولهم: «وما بين طرف اللسان

(1) رمضان عبدالنواب: التطوّر اللغوي، ص24، وينظر كذلك: أمانة الزعيبي: التغيّر التاريخي للأصوات، ص163.

(2) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص73.

(3) هاء التأنيث في هذه الكلمة، وما كان على شاكلتها في اللهجة المدروسة، تسقط عند الوقف، ويبقى الأثر السمعي للحركة قبلها؛ أي أنّها تتحوّل إلى هاء السكت.

(4) الكسرة الطويلة الممالئة [ee] في هذه الكلمة هي، في الأصل، حركة مُركّبة تتألف من تتابع صوتي الفتح والكسرة [a + i]، ولكن اللهجة المدروسة -وعلى غرار اللهجات العربية الأخرى- مالت إلى التخلص من هذه الحركة المُركّبة عن طريق تحويلها إلى كسرة طويلة ممالئة بسيطة. ويمكن تعليل ذلك بصعوبة نُطق الحركة المُركّبة؛ لما تسببه من جهد عضلي فرّ منه الناطق، وسهولة نُطق الحركة البسيطة التي لا يجد الهواء الخارج من الرئتين -أثناء النطق بها أيّ عائقٍ يحول دون اندفاعه ببسرٍ وسهولةٍ. ينظر: عبدالقادر مرعي: المُصطلح الصوتي، ص149، عبدالعزيز مطر: لهجة البُو في الساحل الشمالي لجمهورية مصر العربية، ص70.

(5) سيبويه: الكتاب، 4/433. وينظر كذلك: المُبرّد: المُقتضب، 1/329، ابن جنّي: سرّ صناعة الإعراب، 1/47، ابن عصفور: المُمتع في التصريف، 2/669، الأسترابادي: شرح الشافية، 3/252، ابن الجزري: النشر، 1/200.

وأطراف التَّنْايَا مخرَجُ الطَّاءِ»⁽¹⁾، وهذا المخرَجُ هو نفسه الذي حدَّده الدرسُ الصَوْتِيُّ الحديث⁽²⁾. فالطَّاءُ صَوْتُ أَسْنَانِيٍّ، ولا خلاف بين قدامى اللُّغَوِيِّينَ ومُحدِّثيهم في هذا.

يَبْدُ أَنَّ علماءَ الأصواتِ المُحدِّثينَ قد وقفوا مليًّا عندَ وَصْفِ القُدَامِيِّ للصَّوتِ الأوَّلِ -وهو الضَّادُ- فأجمعوا على أَنَّ هذا الوصفَ ينطبقُ على صوتٍ قديمٍ فُقدَ في النُّطقِ المُعاصِرِ، ولم يعد موجودًا في كثيرٍ من اللِّهجاتِ العربيَّةِ الحديثة⁽³⁾، بما فيها لهجةُ محافظةِ طوباسِ الفلسطينيَّةِ. «فالضَّادُ العتيقُّ حَرَفٌ غريبٌ جدًّا»⁽⁴⁾، إذ إنَّه -كما يصفه مكِّي بن أبي طالب- «أصعبُ الحروفِ تَكَلُّفًا في المخرجِ، وأشدُّها صعوبةً على اللِّالِظ»⁽⁵⁾. وقد حاول د. إبراهيم أنيس أن يتخيَّلَ كيفيَّةَ نُطقِ الضَّادِ القديمةِ، ذاهبًا إلى أَنَّ أوصافها تُثبتُ تشابُهَ نطقها مع نُطقِ الطَّاءِ، حين قال: «والضَّادُ القديمُ -كما أتخيَّلُها- يمكنُ النُّطقُ بها بأنَّ يبدأ المرءُ بالضَّادِ الحديثِ، ثمَّ ينتهي نطقه بالطَّاءِ، فهي -إذًا- مرحلةٌ وُسْطَى فيها شيءٌ من شدَّةِ الضَّادِ الحديثِ، وشيءٌ من رخاوةِ الطَّاءِ العربيَّةِ. ولذلك، كان يعدها القدامى من الأصواتِ الرِّخوةِ»⁽⁶⁾.

وفي المقابل، يذهب كلُّ من (هنري فليش)، و(جان كانتينو) إلى أَنَّ صوتَ الضَّادِ «يُحتمَلُ أَنَّهُ كانَ ظاءً جانبيَّةً، أيُّ أَنَّهُ كانَ يجمعُ الطَّاءَ واللامَ في ظاهرةٍ واحدةٍ. وقد اختلفَ هذا الصَّوتُ، فلم يعد يُسمَعُ في العالمِ العربيِّ، وأصبحَ بصفةٍ عامَّةٍ إمَّا صوتًا انفجاريًّا، وهو مُطبَّقُ الدَّالِّ، وإمَّا صوتًا أسنانيًّا هو الطَّاءُ»⁽⁷⁾.

يجدرُ أنْ نشيرَ هنا، إلى أَنَّ هذا الصَّوتُ نظرًا لكونه من الأصواتِ، التي تفرَّدتْ بها اللُّغةُ العربيَّةُ بينَ اللُّغاتِ السَّاميَّةِ، إضافةً إلى صعوبته على الناطقِ، فقد تطوَّرَ حتَّى صارَ ظاءً في الألسُنِ المُعاصِرَةِ⁽⁸⁾، من بابِ قانونِ السُّهولةِ والتَّيسيرِ في النُّطقِ⁽⁹⁾.

ومن ناحيةٍ أُخرى، فإنَّ هذا الخلطَ بينَ صوتي الضَّادِ والطَّاءِ ليسَ بالأمرِ الحديثِ، بل إنَّ له جذورًا قديمةً، فقد كان نتاجُ هذا الخلطِ هو الوصولُ إلى الضَّادِ الضَّعيفةِ التي وَصَفَها السِّيرافيُّ، بقوله: «إنَّها لُغةٌ قومٍ ليسَ في لغتهم ضادٌ، فإذا احتاجوا إلى التَّكَلُّمِ بها في العربيَّةِ اعْتَصَلَتْ عليهم، فربَّما أخرجوها ظاءً؛ لإخراجهم إيَّاهَا من طَرَفِ اللِّسانِ وأطرافِ التَّنْايَا، وربَّما تكلفوا إخراجها

- (1) سيبويه: الكتاب، 433/4. وينظر كذلك: ابن السراج: الأصول، 401/3، المُبرِّد: المُقتَضَب، 329/1، ابن جني: سرِّ صناعة الإعراب، 47/1، ابن يعيش: شرح المُفصَّل، 518/5، ابن الجزري: النشر، 201/1.
- (2) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللُّغويَّة، ص51-53، جان كانتينو: دروس في علم أصوات العربيَّة، ص64، كمال بشر: علم الأصوات، ص299.
- (3) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللُّغويَّة، ص51-53، جان كانتينو: دروس في علم أصوات العربيَّة، ص87، تمام حسان: مناهج البحث في اللُّغة، ص93، كمال بشر: علم الأصوات، ص253-254.
- (4) برجستراسر: النُّظور النَّحويَّة، ص18.
- (5) القيسي: الرعاية، ص185.
- (6) رمضان عبدالتَّوَّاب: المدخل إلى علم اللُّغة، ص67.
- (7) هنري فليش: العربيَّة الفصحى، ص37. وينظر كذلك: جان كانتينو: دروس في علم أصوات العربيَّة، ص86.
- (8) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللُّغويَّة، ص52.
- (9) ينظر: أمانة الزعبي: التَّغيُّر التاريخي للأصوات، ص163.

من مخرج الضاد، فلم يتأت لهم فخرجت بين الضاد والطاء⁽¹⁾. علاوة على هذا، يرى ابن الجزري أن صوت «الضاد انفرَد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله؛ فإن السنة الناس فيه مُختلفة، وقلَّ من يحسنه؛ فمنهم من يخرجُه طاءً»⁽²⁾. إذاً، فلعلَّ ما ذهب إليه هذان العلمان يتفقُ ووصف الباحث، لما حدث من انتقال مخرج الضاد إلى الطاء في لهجة محافظة طوباس الفلسطينية.

ومما يدلُّ على قديم هذا النوع من التطور اللغوي وامتداده في اللهجات العربية القديمة، ما بُتَّ في كُتُب اللُّغة من ألفاظ تناوبت فيها الضاد والطاء، فشاع إلى حدِّ دفع علماء اللُّغة إلى تصنيف الرسائل والكتب⁽³⁾، التي تتناول الفرق بين هذين الصوتين، محاولة رفع الالتباس بينهما، وحصر الألفاظ التي يدخل الضاد أو الطاء في بنيتها. وقد أفرَد اللغويون جملة من الألفاظ التي يتعاقب فيها هذا الصوتان؛ كأن يُقال: «فاضت نفسه وفاظت نفسه؛ أي مات. والحضض والحظط: الكحل. والحصل والحظل: فساد في أصول سعف النخل. والعضلان والعطلان: ضرب من الفار. والأرض والأرط: قوائم الدابة، والأشهر فيه الضاد»⁽⁴⁾. كما جاء في لسان العرب في مادة [بضض]: «بض أوتاره؛ إذا حرَّكها ليهيئها للضرب، ويُقال: بظ بظاً بالطاء». وفي مادتي [حضرب] و[حظرب]: «كُلُّ مملوءٍ مُحضربٍ ومُحظربٍ أيضاً».

أما الدرس الصوتي الحديث، فإنَّ وصفه لصوت الضاد مختلف عما أجمع عليه القدامى، إذ ينتج من التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ومقدم اللثة. ويوصف بأنه صوت "أسناني لثوي انفجاري مجهور مُفخم"، وأنه المُقابل المُفخم للذال، والتظير المجهور للطاء⁽⁵⁾. وعلى هذا الوصف، تقترب الضاد الحديثة من صوت الطاء، فكلاهما صوت مجهور، بيد أن الضاد الحديثة انفجارية والطاء احتكاكية. ولذلك، فإنَّ انتقال مخرج الضاد الأسناني اللثوي إلى مخرج الطاء الأسناني في لهجتنا المدروسة، أمرٌ مقبولٌ في الدرس الصوتي الحديث؛ نظراً لتقارب مخرجيهما، وتلاقيهما في بعض الملامح؛ كالنَّفخيم والجهر. زد على هذا أن الصُّعوبة الشديدة لصوت الضاد - كما وصفه القدامى والمحدثون - باعتباره «أصعب الحروف في النطق»⁽⁶⁾، قد دفعت أبناء اللهجة إلى تغيير مخرجه، والانتقال به إلى الأمام حيث مخرج الطاء، انطلاقاً من

- (1) الأسترابادي: شرح الشافية، 256/3. وينظر كذلك ما قاله سيبويه وابن يعيش عن الضاد الضعيفة: الكتاب، 432/4، شرح المفصل، 521/5.
- (2) ابن الجزري: النشر، 219/1.
- (3) أحصى الدكتور رمضان عبدالنواب ثلاثين رسالة ألقت في التفريق بين الضاد والطاء، ومنها: "معرفة ما يكتب بالضاد والطاء" لأبي القاسم الرنجاني، و"الغنية في الضاد والطاء" لابن الدهان النحوي، و"الفرق بين الضاد والطاء" لأبي عمرو الزاهد، و"كتاب الطاء والضاد" للقطبي وغيرها. ينظر: ابن الأنباري: زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والطاء، المقدمة، ص 23-35.
- (4) ينظر: أبو الطيب اللغوي: الإبدال، 273-267/2، الزجاجي: الإبدال والمعاينة والنظائر، ص 59-60، السبوي: المزهَر في علوم اللُّغة وأنواعها، 563-561/1.
- (5) ينظر: محمود السعمران: علم اللُّغة، ص 155، أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص 316، رمضان عبدالنواب: المدخل إلى علم اللُّغة، ص 46.
- (6) السبوي: همع الهوامع، 450/3.

نظرية السهولة والتيسير، التي تُنادي بأنَّ الإنسان يميل في نطقه إلى الاقتصاد في المجهود العضلي⁽¹⁾.

ومع ذلك، بقيَ هذا الصوت في بعض سياقات اللهجة المدروسة مُحافظًا على مخرجه الأسناني اللثوي، إلاَّ أنه تحوَّل إلى وَحْدَتَيْن صوتيتين أُخريين، هذا ببيانهما:

أ. يُحوَّل صوت الضاد إلى ژاي [ʒ] إذا وقع مُجاورًا للطاء، فيُتَخَلَّص من الضاد المُفخَّمة الانفجارية بقلبها إلى ژاي مُفخَّمة احتكاكية صفيرية أخفَّ نُطقًا من الضاد؛ وهذا عائدٌ إلى كَوْن مخرَج الضاد قريبًا من مخرَج الژاي، كما أنَّ كليهما مجهور. فكانَ هذا التَّعاقُب الصوتي هروبيًا من الصُّعوبة، التي يُواجهها الناطق لصوت الضاد؛ لتوفير الجُهد، وتيسير عملية النطق. ولذلك، يقول ابن الجزري: «الضاد انفرَد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله؛ فإنَّ ألسنة الناس فيه مُختلفة، وقَلَّ مَنْ يحسنه؛ فمنهم مَنْ يُخرجه طاءً ... ومنهم مَنْ يُثبِّمُه الژاي»⁽²⁾، ومثال ذلك:

<u>الكلمة نفسها في اللهجة.</u>		<u>الكلمة في الفصحى.</u>	
[ʒibet]	ژيْبْط ←	[dabat]	ضَبْط
[biʒzabt]	بِالْژَبْط ←	[biɖdabt]	بالضَبْط
[maʒbuut]	مَرْبوْط ←	[maɖbuut]	مَضْبُوْط

وفي المقابل، يذهب بعض الباحثين إلى أنَّ نُطق الضاد أو الطاء ژايًا مُفخَّمة انحراف صوتي؛ لأنَّه يُشوِّه الصورة الصوتية للكلمة، لعدم وجود فونيم⁽³⁾ مُستقلِّ لصوت الژاي المُفخَّمة في اللغة العربية⁽⁴⁾. وفي تصوُّر الباحث، أنَّ عدم وجود فونيم مُستقلِّ للژاي المُفخَّمة لا يعني أنَّه يُشوِّه صورة الكلمة الصوتية؛ لأنَّ العرب قديمًا، عرفوا تعاقب هذين الصوتين؛ فقد قالوا: «رَجُلٌ زَمِنٌ وضَمِنٌ بمعنى واحد. وزَبِنْتَ الهديةَ عَنَّا وضَبِنْتَهَا؛ أي صرَفْتَهَا عَنَّا إلى غَيْرِنَا. والوَخَزُ والوَخْضُ: الطَعْنُ غَيْرُ المُبالغ. والزَّنَاطُ والضَّنَاطُ: الزَّحَامُ. ونَعَزْتَ تَبَيُّتُهُ ونَعَضْتَ؛ أي تَحَرَّكَتْ»⁽⁵⁾. وجاء في لسان العرب في مادة [فَوْضَ]: «فَوْضَ النَّيْتُ وَفَوَّزَ؛ إذا أُنْهَدِمَ».

(1) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص165-166، رمضان عبدالنواب: لحن العامة، ص50-51.

(2) ابن الجزري: النشر، 219/1.

(3) الفونيم، كما يراه د. إبراهيم أنيس، هو الوَحْدَةُ النطقية الأساسية في لغة ما، وأيُّ انحراف صوتي في هذه الوَحْدَةُ يترتَّب عليه تغييرٌ في الدلالة، أو الوظيفة لكلمة من الكلمات. ينظر: اللغة بين القومية والعالمية، ص25، ويعرفه د. رمضان عيد النواب، بأنَّه «وحدة صوتية أو عائلة صوتية»، ويُعلِّق على ذلك قائلًا: «في إمكاننا أن نطلق عليه اسم حرف مقصودًا به الرَّمز الكتابي، ونعمل بذلك على التَّفريق بين الاصطلاحين: صوت، وحرف. فالصوت هو ذلك الذي نسمعه ونحسه. أمَّا الحرف، فهو ذلك الرَّمز الكتابي، الذي يُتَّخَذُ وسيلةً منظورة، للتعبير عن صوت معين، أو مجموعة من الأصوات لا يُؤدِّي تبادلها في الكلمة إلى اختلاف المعنى». ينظر: المدخل إلى علم اللغة، ص83.

(4) ينظر: عبدالمعطي نمر: الأصوات العربية المُتحوِّلة وعلاقتها بالمعنى، ص125.

(5) ينظر: أبو الطيب اللغوي: الإبدال، 138-134/2.

ب. يُحوّل صوت الضاد إلى مُقابله المُرقّق، وهو صوتُ الدال [d]، فيفقد -عندئذٍ- مَلَمَحَ التّفخيم [الإطباق]. وممّا يُسمَعُ في ألسنة أبناء اللّهجة، قولهم:

الكلمة نفسها في اللّهجة		الكلمة في الفصحى	
[diraar]	دِرَارٌ ←	[diraar]	ضِرَارٌ
[dars]	دِرْسٌ ←	[dars]	ضِرْسٌ
[dufda ']	دُفْدَعٌ ←	[dufda ']	ضُفْدَعٌ

ويرى د. إبراهيم أنيس أنّ تحوّل صوتِ الضادِ المُطبّق إلى نظيره الدالِ المُرقّق في بعض اللّهجات العربيّة، عائدٌ إلى الميلِ للتخلّص من صعوبة النطق بالأصوات المُطبّقة. وذلك؛ لأنّها «تتطلّبُ للنطق بها وضعاً خاصّاً للسان يحمل المتكلم بعض المشقّة، إذا قيسَت بنظائرها من الحروف غير المُطبّقة»⁽¹⁾.

ثانياً: انتقال مخرج القاف [q]

وهذا الصوت -أيضاً- غير موجود في اللّهجة المدروسة، إذ طرأ عليه في اللّهجات الحديثة جملةٌ من التّعيرات التاريخيّة، فهو في كلام كثيرٍ من أهل مصر والشام -بما فيها بعض المدن الفلسطينيّة- همزة، ويُنطق في بعض بلدان الخليج العربيّ صوتاً مزجياً كالجيم الفصيحة، وفي السودان وجنوبي العراق تحوّل نطقُ القاف إلى غين. كما يتحقّق هذا الصوتُ بالكاف المهموسة في جُلِّ القرى الفلسطينيّة، وبالكاف المجهورة [الجيم القاهريّة] في كلام البدو⁽²⁾.

ولا يُمكننا وصفُ ما أصاب هذا الصوتَ من تغيّرٍ أو تطوّرٍ إلّا من باب تقليل الجهد العضليّ المبذول، أثناء النطق، إذ إنّ القاف صوتٌ لهويٌّ انفجاريٌّ قد ضاقّ العربُ دَرعاً بنقله وصعوبة النطق به⁽³⁾، علاوة على صفته الانفجاريّة، فقلّبوه إلى الأصوات السابّقة؛ بدليل حاجة هذا الصوت إلى القلقلّة⁽⁴⁾، بل إنّ حاجته إلى القلقلّة أوضح من حاجة غيره لها⁽⁵⁾. ولذلك، فإنّ التغيّر الذي أصاب هذا الفونيم في اللّهجة المدروسة -يتمثّل في انتقال مخرجه اللّهويّ إلى الأمام قليلاً، تُجاه الطّبِق، فاتّخذ بهذا الانتقال صورتين اثنتين:

- (1) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ص27.
- (2) ينظر: كارل بروكلمان: فقه اللّغات الساميّة، ص48، رمضان عبدالنوّاب: التطوّر اللّغويّ، ص28-29، رمضان عبدالنوّاب: بحوث ومقالات في اللّغة، ص9-10، فوزي الشايب: أثر القوانين الصوتيّة في بناء الكلمة العربيّة، ص53-59.
- (3) ينظر: إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ص26.
- (4) القلقلّة: صوّيت قصيراً جداً يشبه الكسرة، يلحق الأصوات التي وصفها القدماء بالشديدة المجهورة عندما تكون ساكنة، حرصاً منهم على إظهار كلِّ ما في هذه الأصوات من جهر فلا تختلط بنظائرها المهموسة، وهذه الأصوات جمعها في عبارة: (قطب جد). ينظر: إبراهيم أنيس: محمود السعران: علم اللّغة، ص160.
- (5) ينظر: إسماعيل عمارة: بحوث في الاستشراق واللّغة، ص205.

الأولى: تتمثل في نطقه كافاً [k] طبقية مهموسة، ومن أمثلة ذلك في اللهجة المدروسة:

الكلمة في الفصحى .	الكلمة نفسها في اللهجة .
[qataayif]	قَطَايِفْ ← كَطَايِفْ [kataayif]
[qintara]	قِنَطْرَه ← كِنَطْرَه [kintara]
[haqiiba]	حَقِيْبَه ← كَقِيْبَه [hakiibe]
[waqqaf]	وَقَفْ ← وَكَفْ [wakkaf]
[xamiiq]	عَمِيْقْ ← عَمِيْكْ [xamiik]
[xaazuuq]	خَازُوْقْ ← خَازُوْكْ [xaazuuk]

والحقيقة أن تطوّر نُطَق القاف إلى كافٍ شائع على نطاق واسع في لهجات الريف والقرى الفلسطينية عامّة، بما فيها لهجة محافظة طوباس، وهذا التطوّر الصوتي في الدارجة الفلسطينية لم يأت من فراغ، بل له امتداد في اللهجات العربية القديمة⁽¹⁾، فقد نسبت هذه الظاهرة إلى بني تميم، وعلى لهجتهم روي قول الشاعر⁽²⁾:

وَلَا أَكُوْلُ لِكَدْرِ الْكُوْمِ: كَدُّ نَضَجَتْ
وَلَا أَكُوْلُ لِبَابِ الدَّارِ: مَكْفُوْلٌ

كما قرأ بعضهم بهذه اللهجة في القرآن الكريم؛ فقد جاء في قراءة ابن مسعود لقوله تعالى: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)⁽³⁾، بـ (لَا تُكْهَرْ)⁽⁴⁾، ويعلق ابن خالويه على ذلك قائلاً: «والعرب تبدل القاف كافاً، والكاف قافاً لفرب مخرجهما»⁽⁵⁾.

ويبدو للباحث أن تطوّر القاف إلى الكاف قد شقّ طريقه إلى الفصحى، ويتضح ذلك من جملة الألفاظ التي أحصاها اللغويون، وعدّها مما أبدلت فيها القاف كافاً، فقد عفا أبو الطيب اللغوي باباً في كتابه "الإبدال" ذكر فيه عدداً كبيراً من تلك الألفاظ؛ ومن ذلك: «دَقَمَهُ وَدَكَمَهُ؛ أي دَفَع في صدره. وَفَشَطَّتْ الْكِتَابَةَ وَكَشَطَّتْ. وهذا أعرابيٌّ فُحَّ وَكُحَّ. وَفَرَابُ مَائَةٍ وَكُرَابُ مَائَةٍ؛ أي قَرِيبٌ مِنْ مَائَةٍ. وَالنَّقِيبُ وَالنَّكَيْبُ: عَرِيفُ الْقَوْمِ. وَفَمَزَتْ الشَّيْءَ وَكَمَزَتْهُ؛ أي جَمَعَتْهُ»⁽⁶⁾. كما جاء في لسان العرب في مادة [أَقْن]: «الْوُقْنَةُ وَالْوُكْنَةُ: مَوْضِعُ الطَّائِرِ مِنَ الْجَبَلِ». وفي مادة [حَسَقَل]: «وَالْحَسَاقِلُ: الصَّغَارُ، وَكَذَلِكَ الْحَسَاكِلُ». وفي مادة [مَكَّك]: «وَأَمْتَقَّ الْفَصِيلُ مَا فِي ضَرْعِ أُمِّهِ وَأَمْتَكَّهُ؛ أي شَرِبَهُ أَجْمَعُ».

- (1) ينظر: فوزي الشايب: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، ص55.
- (2) ينظر: ابن دريد: جمهرة اللغة، 42/1، ابن فارس: الصحابي في فقه اللغة، ص30.
- (3) الضحى، آية 9.
- (4) ينظر: الفراء: معاني القرآن، 274/3، الزجاجي: الإبدال والمعاقبة والنظائر، ص78، أبو الطيب اللغوي: الإبدال، 356/2، ابن خالويه: مختصر في شواذ القرآن، ص175.
- (5) ابن خالويه: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ص122.
- (6) أبو الطيب اللغوي: الإبدال، 364-353/2. وينظر كذلك: ابن السكيت: القلب والإبدال، ص37-38، الزجاجي: الإبدال والمعاقبة والنظائر، ص77-82، السيوطي: المزهري، 563-564/1.

وهذا الانتقال المخرجي، الذي أصاب القاف في لهجة محافظة طوباس، فأصبحت تُنطقُ كَافًا، له ما يُسوِّغُهُ من الناحية الصوتية، فالكاف صوتٌ طبقيٌّ انفجاريٌّ قريبٌ المخرج من القاف، التي نعتها علماء اللُّغة القُدَامِي بأنَّها صوتٌ شديدٌ (انفجاريٌّ)، مَخْرَجُهُ «مِنْ أَقْصَى اللِّسَانِ وَمَا فَوْقَهُ مِنَ الحَنَكِ الأَعْلَى»⁽¹⁾، والفرقُ بينهما عندَ القُدَامِي أَنَّ القافَ صوتٌ مجهورٌ، والكافَ صوتٌ مهموسٌ، وبهذا الوصفِ تكادُ القافُ تكونُ المُقابِلَ المجهورَ للكافِ. أمَّا الدرسُ الصوتيُّ الحديثُ، فيصفُ القافَ بأنَّها صوتٌ لهويٌّ مهموسٌ⁽²⁾ لا صوتٌ مجهورٌ، كما نعتَه القُدَامِي، وهو «أمرٌ يزيدُ من التقاربِ الموجودِ بينِ الصَّوتينِ أصلًا، ذلكَ أنَّ المسافةَ بينَ القافِ الفصيحةِ والكافِ طويلةً، وهي ضعفُ المسافةِ التي بينَ القافِ اليمينيةِ والكافِ»⁽³⁾.

علاوةً على أنَّ مخرجَ الكافِ أكثرُ أماميةً من مخرجِ القافِ، والملاحظُ في تغيُّرِ مَخارجِ الأصواتِ، أنَّه «يكونُ بأحدِ طريقين: إمَّا بانتقالِ المخرجِ إلى الوراثةِ أو إلى الأمامِ، باحثًا الصَّوتُ في انتقاله عن أقربِ الأصواتِ شَبهًا به من الناحيةِ الصوتية»⁽⁴⁾، وبانتقالِ مخرجِ القافِ إلى الأمامِ وجدَ أقربَ المَخارجِ له وهو مخرجُ الكافِ فتحولَ إليه. ويُضافُ إلى ذلكَ أنَّ الناطقَ -كما يبدو- مالَ إلى التخلُّصِ من صوتِ القافِ المُفخَّمِ، فاستبدلَ به صوتًا مُرقِّفًا؛ لأنَّ الأصواتِ المُطَبَّقةَ [المُفخَّمةَ] «تتطلَّبُ للنُّطقِ بها وضعًا خاصًّا للسانِ يحملُ المُتكلمُ بعضَ المشقةِ، إذا قيسَتِ بنظائرها من الحروفِ غيرِ المُطَبَّقةِ [المُرقِّفةِ] ... وقد أدَّتْ صعوبةَ النُّطقِ بحروفِ الإطباقِ أننا نلحظُ الميلَ إلى التخلُّصِ منها في اللِّهجاتِ الحديثة»⁽⁵⁾.

وفي ضوءِ ما سبق، يُمكنُ للباحثِ القولُ: إنَّ قِصرَ المسافةِ التي يَنحَسِبُ فيها تيارُ الهواءِ الرئويُّ قَبيلَ مخرجِ القافِ، وبعْدَ هذا المخرجِ عن ممرِّ الهواءِ خارجِ الفمِ حالَ النُّطقِ بالقافِ - هما من استدعيا التغيُّرِ الذي أصابَ القافِ في لهجةِ محافظةِ طوباسِ، إذ تزجَحُ مخرجُها قليلًا إلى الأمامِ تُجاهَ آخرِ الطَّبَقِ؛ للتخلُّصِ قدرِ المستطاعِ من إحدى صفاتِ القوَّةِ التي في القافِ، وهي صفةُ التَّفخيمِ⁽⁶⁾، مع احتفاظها بصفةِ الانفجارِ في نطقها، ولأنَّ القافَ في الأصلِ صوتٌ مهموسٌ فقد استبدلَ بها الكافُ التي هي صوتٌ مهموسٌ أيضًا.

- (1) سيبويه: الكتاب، 433/4. وينظر كذلك: ابن السراج: الأصول: 400/3، القيسي: الرعاية، ص171، الأسترابادي: شرح الشافية، 250/3. حتى لدرجة أن بعض القدماء، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد وابن يعيش، قد ذهب إلى أنَّ صوتي القاف والكاف مخرجهما واحدٌ، وهو اللِّهأة، إذ يقول ابن يعيش: «والقافُ والكافُ في حيزٍ واحدٍ، فالكافُ أرفعُ من القافِ، وأدنى إلى مُقدِّمِ الفمِ، وهما لهويَّتَانِ؛ لأنَّ مبدأهما من اللِّهأة». ابن يعيش: شرح المُفصَّل 516/5. وانظر كذلك: الخليل بن أحمد: العين (المقدمة)، 41/1.
- (2) ينظر: محمود السَّعْران: علمُ اللُّغة، ص156، تمام حسان: مناهج البحث في اللُّغة، ص96-97، رمضان عبدالنَّوَّاب: المدخل إلى علم اللُّغة، ص221-222.
- (3) أمانة الزعبي: التغيُّر التاريخي للأصوات، ص62. وينظر كذلك: إسماعيل عميرة: بحوث في الاستشراق واللُّغة، ص206.
- (4) إبراهيم أنيس: الأصوات اللُّغوية، ص73.
- (5) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ص27.
- (6) ينظر: سعيد شواهنة: التحققات النُّطقية لصوتي الكاف والقاف في الدارجة الفلِسطينية، ص91.

والأخرى: تتمثل في نطق القاف غيناً [ɣ] طبقيّة مجهورة، ومن أمثلة ذلك في اللهجة:		
<u>الكلمة في الفصحى .</u>		<u>الكلمة نفسها في اللهجة .</u>
يَقْدِرُ [yaqdir]	←	يَغْدِرُ [yɪɖdar]
قَادِرٌ [qaadir]	←	غَادِرٌ [ɣaadir]
زَقْرَقْنِي [zaqzaqnii]	←	زَغْرَغْنِي [zaɣzaɣnii]

والغين صوتٌ يخرجُ من أدنى مخرج الحلق من الفم، كما وصفه القدماء⁽¹⁾، وتابعهم فيه بعضُ المُحدثين⁽²⁾. ولكنّه، في نظرِ الدرسِ الصّوتيّ الحديث، صوتٌ حنكيّ -طبيقيّ- احتكاكيّ مجهور⁽³⁾. والفرقُ بينه وبين القاف، أنّ القاف صوتٌ لهويّ انفجاريّ مجهورٌ في وصف القدماء -كما أسلفنا- مهموسٌ في وصف المُحدثين. ولذلك، فقلبُ القاف غيناً له ما يُبرِّره صوتياً من وجهة نظر القدماء؛ إذ إنّ الصّوتين مُتقاربين مخرَجاً ومُنْجِدين في صفة الجهر، فكان من الطبيعيّ، أنّ يعودَ الناطقُ بمخرج القاف إلى الوراثة قليلاً مع تضيق مجرى الهواء ليحدث نوعاً من الحفيف، وهو صوت الغين.

أما السببُ الذي يُعزى إليه تحوُّل القاف المهموسة إلى غينٍ مجهورة في بعض سياقات اللهجة المدروسة، وفي اللهجات العربية الأخرى، كما يرى د. إبراهيم أنيس، فيعودُ إلى أنّ الأحرفَ المهموسة تحتاجُ إلى قدرٍ أكبر من هواء الرنين. لذا، فهي أشقُّ في النطق من المجهورة، وقليلةُ الشبوع في الكلام⁽⁴⁾، الأمرُ الذي سَوَّعَ نَفْلَ مخرجها إلى الطبق لتتطوّر غيناً. في حين يذهب د. رمضان عبدالنوّاب إلى «أنّ ضياع الانفجار من القاف، وتزحزح مخرجها إلى الأمام قليلاً، هو المسئول عن انقلابها غيناً»⁽⁵⁾.

كذلك، فإنّ هذا النوع من التطوّر اللغوي له جذورٌ قديمة؛ إذ تحقّل كُنْبُ اللّغة والمعجم بألفاظ كثيرة انتقل فيها نطق القاف إلى الغين؛ ومن أمثلة ذلك، ما رواه أبو الطيّب اللّغوي، من قول العرب: «غَلَمٌ أَقْلَفٌ وَأَغْلَفٌ؛ أَي لَمْ يُخْتَرْ. وَالْقَمْرُ مِنَ النَّاسِ وَالْعَمْرُ؛ أَي الرُّدَالُ وَمَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ. وَقَلْفٌ فِي الْأَرْضِ وَعَلْفٌ؛ أَي ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ»⁽⁶⁾، كما جاء في لسان العرب في مادة [رَيْق]: «تَرَيَقَتِ الْمَرْأَةُ تَرَيِقًا وَتَرَيِقَتْ تَرَيِقًا إِذَا تَرَيِقَتْ وَتَلَبَّسَتْ وَاكْتَحَلَتْ». وفي مادة [قَدَم]: «قَدَمَ لَهُ مِنَ الْعَطَاءِ وَعَدَمَ؛ إِذَا أَكْثَرَ». وفي مادة [وَقَر]: «يُقَالُ: بَيْنَهُمْ وَقَرَةٌ وَوَعْرَةٌ؛ أَي عِدَاوَةٌ».

- (1) ينظر: سيبويه: الكتاب، 433/4، ابن السراج: الأصول: 400/3، القيسي: الرعاية، ص169، ابن يعيش: شرح المفصل 516/5، الأستراباذي: شرح الشافية، 251/3.
- (2) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص75.
- (3) ينظر: محمود السمران: علم اللّغة، ص177، تمام حسان: مناهج البحث في اللّغة، ص102، رمضان عبدالنوّاب: المدخل إلى علم اللّغة، ص54، كمال بشر: علم الأصوات، ص303.
- (4) ينظر: إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ص30.
- (5) رمضان عبدالنوّاب: بحوث ومقالات في اللّغة، ص11.
- (6) ينظر: أبو الطيّب اللّغوي: الإبدال، 329-328/2.

ومما يُدَلَّل على قَدَم هذه الظاهرة -أيضًا- أنَّ التميميين كانوا يقولون: "عَسَّ" في مُقَابِلِ "قَسَّ" عند غيرهم بمعنى: دَخَلَ في البلادِ وتَوَعَّلَ فيها، وبهذه اللُّغة قال شاعرهم رؤبة⁽¹⁾:

كأحوت لَمَّا عَسَّ في الأنهار

ليس هذا وحسب، فلعلَّ نطق القاف غينًا في لهجاتٍ عربيَّةٍ حديثة، هو ما دفع بعضَ علم الأصوات المُعاصرين إلى أن يُرَجِّحوا الاحتمالَ بكون القاف القديمة، التي وَصَفَهَا القدماءُ بالجَهر، كأنَّ «نَطَقَهَا غينًا أو قريية من صوت الغين»⁽²⁾، الأمرُ الَّذِي يزيدُ من التقاربِ الصوتيِّ الواقع بين هذين الفونيمين، إذ يقول د. إبراهيم أنيس بهذا الصدد: «على أننا نستنتج من وصف القدماء لهذا الصوت أنه كان يشبه إلى حدٍّ كبير، تلك القاف المجهورة التي نسمعها الآن بين القبائل العربيَّة في السودان، فهم ينطقون بها نطقًا يخالف نطقها في معظم اللُّهجات العربيَّة الحديثة؛ إذ نسمعها منهم نوعًا من الغين»⁽³⁾.

ثالثًا: انتقال مخرج الكاف [k]

انتقل مخرجُ هذا الصوت في اللُّهجة المدروسة- من الطَّبَقِ إلى الأمام قليلاً تُجاه الغار، حتَّى أصبح يُنطق صوتًا مُرَكَّبًا أو مزجيًّا [tʃ] على هيئة الصوت الفارسيّ [چ]، أو الصوت الإنجليزيّ [ch]. فعلى وجه الدقَّة، يبدأ هذا الصوت انفجاريًّا، وهو ما يُشبهه صوت التاء، وينتهي احتكاكيًّا، وهو ما يُشبهه صوت الشين.

وقد عُرِفَ هذا النوع من التغيُّرات الصوتيَّة بظاهرة الكَشْكَشَة أو التغيُّور (4) [Palatalization]، أو بظاهرة الاحتكاك⁽⁵⁾، كما يسميها د. كمال بشر. وهي ظاهرة جليَّة في لهجة مُحافظَة طوباس الفلسطينيَّة، بيدَّ أنَّ المُنتَبِع للعادات النطقية في لهجتنا المدروسة، يجد ما لا يقبل الشكَّ- أنَّ هذه الظاهرة لم تكن مُطرَّدة، إذ اقتصرَت -بادئ الأمر- على كاف المُخاطبة، فاستبدلت هذه اللُّهجة كلَّ كافٍ للخطاب المُؤنَّث صوتًا مزجيًّا، حيثُما كانت وكيفما كانت، في الوُفِّ أو في الوُصل. في حين أبقت على الكاف في خطاب المُذكَر دونَ تغيُّير؛ فهم يقولون للمُخاطَب المُذكَر:

(1) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، [عَسَسَ]، 69/10، ضاحي عبد الباقي: لغة تميم، ص106.

(2) أحمد مختار: دراسة الصوت اللغوي، ص343.

(3) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص72. وينظر: هادي نهر، الحروف والأصوات العربية في مباحث القدماء والمحدثين، ص245.

(4) يعرفه (ماريو باي) بقوله: «التغيُّور [Palatalization] يعني نُقَلَ مخرج الصوت إلى منطقة الحنك الصُّلب أو الغار»، ويعرفه تمام حسان بأنَّه «الميلُ بالصوت ذي المخرج الذي خلف الغار إلى أن يُنطق في الغار، أو أقرب ما يكون إليه»، ويمثِّلُ عليه بصوت الكاف المُجاور لأحد أصوات الكسرة في لهجة العراق. ينظر: ماريو باي: أسس علم اللُّغة، ص144، تمام حسان: مناهج البحث في اللُّغة، ص90.

(5) وقد علَّل الدكتور كمال بشر تسميتها بظاهرة الاحتكاك إلى سببٍ فسيولوجي، يتمثِّلُ بأنَّه «عند انتقال اللسان من موضع نطق الكاف، (وهي قصية)، إلى الكسرة، (وهي أمامية)، قد يتسرَّب شيءٌ من الهواء، مُحدِّثًا احتكاكًا (كشكشة)، بدلاً من خروجه مُنفجرًا»، كمال بشر: علم الأصوات، ص275.

«مَعَكْ» [ma ' ak]، «إِلَكْ» [ilak]، «جِيفْ حَالِكْ؟» [ʃeef haalak?]، «عَلَيْكَ» واجِبْ» [aleek waadzib]؛ أي بالكاف.

وفي المُقَابِلِ، يُخاطَبون المُؤنَّثَ على النحو الآتي:

«مَعِجْ» [ma ' itʃ]، «إِلِجْ» [iliʃ]، «جِيفْ حَالِجْ؟» [ʃeef haaliʃ?]، «عَلَيْجْ واجِبْ» [aleeʃ waadzib]؛ أي بالكشكشة.

ومن الواضح -إِذَا- أَنَّ لهذه الظاهرة في حال التأنيث وظيفة نحوية أو دلالة مورفيمية، وهي التفريق بين المُذَكَّرِ والمُؤنَّثِ⁽¹⁾؛ «لأنَّهم إذا فصلوا بين المُذَكَّرِ والمُؤنَّثِ بحرف كان أقوى من أن يفصلوا بحركة»⁽²⁾، خاصة وأنَّ اللُّهْجَةَ المدروسة غيرها من اللُّهْجَاتِ العربيَّةِ المُعاصرة تلجأ إلى التسكين في كلامها، فلا يُبَيِّنُ جنس المُخاطَبِ مُذَكَّرٌ هو أم مُؤنَّثٌ؟

ثُمَّ تَطَوَّرَ الأمرُ، فأصبحت اللُّهْجَةُ تعتمد إلى الكشكشة حين تسبق الكاف أو تتلوها حركةً أماميةً -كسرة أو فتحة، سواءً أكانت طويلةً أم قصيرةً، خاصةً أم ممالئةً- وذلك تبعاً لقانون الأصوات الحنكيَّةِ. ومُلخَّص هذا القانون أنَّ أصواتَ أقصى الحنك كالكاف والجيم القاهريَّةِ الخالية من التعطيش، تميلُ بمخرجها إلى نظائرها من أصواتِ أماميةٍ حين تليها في النطق حركةً أماميةً [كالكسرة]؛ لأنَّ الحركةَ الأماميةَ في هذه الحالة تجتذبُ إلى الأمام قليلاً أصواتَ أقصى الحنك، فتتقلبُ إلى نظائرها من أصواتِ وسطِ الحنك، ويغلبُ أن تكونَ هذه الأصواتُ الجديدة من النوع المُزدوج، أي الجامع بين الشدة والرخاوة⁽³⁾، ومن أمثلة ذلك في اللُّهْجَةُ:

الكلمة نفسها في اللُّهْجَةُ .		الكلمة في الفصحى .		
[biʃr]	بِجْرُ	←	[bikr]	بِكْرُ
[ʃiil]	چِيلُ	←	[kiil]	كَيْلُ
[ʃalb]	چَلْبُ	←	[kalb]	كَلْبُ
[matʃfaar]	مَچَارُ	←	[makkaar]	مَكَارُ

ومن ثَمَّ أصبحت تلك الظاهرة مُطْرَدَةً -في لهجتنا المدروسة- في كلِّ كافٍ، ما لم تكن للمُخاطَبِ المُذَكَّرِ، وإن جاورتها حركةٌ خَلْفِيَّةٌ؛ كالضمة بأنواعها. ولذلك، يُسمَعُ من أبناء اللُّهْجَةُ قولهم:

الكلمة نفسها في اللُّهْجَةُ .		الكلمة في الفصحى .		
[ʃusr]	چُسْرُ	←	[kusr]	كُسْرُ
[ʃoom]	چومُ	←	[kawm]	كَوْمُ
[ma ' ʃuuf]	مَچوُفُ	←	[ma ' kuuk]	مَعْكوُفُ

(1) ينظر: عبدالعزيز مطر: خصائص اللُّهْجَةُ الكويتيَّة، ص41، سعيد شواهنة: التحققات النطقية لصوتي الكاف والقاف في الدارجة الفلستينية، ص87.

(2) سيبويه: الكتاب: 199/4.

(3) ينظر: رمضان عبدالتواب: التطور اللُّغوي، ص132، عبدالعزيز مطر: خصائص اللُّهْجَةُ الكويتيَّة، ص39، سعيد شواهنة: التحققات النطقية لصوتي الكاف والقاف في الدارجة الفلستينية، ص86.

إلا أن هنالك، في المقابل، ألفاظاً قليلةً تُنطقُ بكافٍ خالصةً فصيحةً التركيب الفونيمي لا بالكشكشة لدى أبناء اللهجة؛ من مثل: «أَكْلِيه، إِكْتَابِيه، مَلِكْ، كَلْ، كُوْدْ، كُرْكُمْ، كُفْكِبْرْ، كُرْسِي، أَكِيْدْ ... إلخ».

وعود إلى ذي بدء، فظاهرة الكشكشة هذه، التي تُمثلُ انتقال مخرج الكاف الطبقِي [k] إلى الغار ليصبح صوتاً مزججياً [ʃ]، سِمَةٌ لهجيَّةٌ عربيَّةٌ قديمة، اختلف القدماء في نسبتها إلى قبيلة بعينها، فقد نسبت إلى أناسٍ من تميم⁽¹⁾، وأسد⁽²⁾، ونسبها ثعلب في أماليه إلى هوازن⁽³⁾، ونسبها ابن جنِّي والسيوطي إلى ربيعة ومضَر⁽⁴⁾، وينقلُ أحمد تيمور باشا نسبتها إلى سليم، وبكر، وتغلب، وقضاع⁽⁵⁾.

ويُتَّضحُ للباحث من التباين السابق، في نسبة هذه الظاهرة إلى قبيلة بعينها، أنها كانت واسعة الانتشار، تغطي مساحاتٍ قبليَّةً مُتعدِّدة، ولعلَّ هذا ما يُفسِّرُ انتشارها في عصرنا الحاضر في مناطقٍ عربيَّةٍ مختلفةٍ من العراق، وجنوب الجزيرة، والريف الفلسطينيِّ بعامة، ومحافظة طوباسٍ بخاصة. وعلى كلِّ حال، لم يقتصر خلاف القدماء على نسبة هذه الظاهرة إلى بيئةٍ مُعيَّنة، بل نجدهم يختلفون -أيضاً- في دلالتها الصوتيَّة التي رويت بأشكالٍ مختلفةٍ تصِفُ ماهيَّتها، محاولةً الوقوفَ عند جَوْهرها، يمكن توضيحها بما هو آتٍ⁽⁶⁾:

1. قلبُ كافِ المُخاطَبِ المُؤنَّثِ شيئاً في حالة الوقف؛ فيقالُ للمرأة: «جَعَلَ اللهُ البرَكَةَ في دارِش»، «ويَحِكُ مالِش».
2. إلحاقُ شينِ بكافِ المُخاطَبِ المُؤنَّثِ في الوقف؛ مثل: أُعْطِيْتُكَشْ، وأُكْرِمُكَشْ.
3. إجراءُ الوصلِ مَجْرَى الوقف؛ ولذلكَ قَرَأَ بعضهم "قَدْ جَعَلَ رَيْشٌ تَحْتَشِ سَرِيًّا"⁽⁷⁾ لقوله تعالى: (قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا)⁽⁸⁾، بإبدالِ كافِ المُؤنَّثِ شيئاً، كما استشهدوا ببيت المجنون⁽⁹⁾:

- (1) ينظر: الخليل بن أحمد: العين، [كشش]، 32/4، سيبويه: الكتاب، 199/4، أبو الطيب اللُّغوي: الإبدال، 230/2، الثعالبي: فقه اللُّغة وسرِّ العربيَّة، 151/1، الأسترابادي: شرح الشافية، 419/4، ابن منظور: لسان العرب، [كشش]، 101/12، البغدادي: خزنة الأدب، 461/11.
- (2) ينظر: سيبويه: الكتاب، 199/4، ابن فارس: الصحابي في فقه اللُّغة، ص29، ابن منظور: لسان العرب، [كشش]، 101/12، السيوطي: المزهَر، 210/1، البغدادي: خزنة الأدب، 461/11، علي ناصر غالب: لهجة قبيلة أسد، ص101.
- (3) ينظر: السيوطي: المزهَر، 211/1.
- (4) ينظر: ابن جنِّي: الخصائص، 11/2، ابن منظور: لسان العرب، [كشش]، 101/12، السيوطي: المزهَر، 221/1، بروكلمان: فقه اللُّغات الساميَّة، ص69.
- (5) ينظر: أحمد تيمور باشا: لهجات العرب، ص66، 70، 74، 78.
- (6) ينظر: ضاحي عبد الباقي: لغة تميم دراسة تاريخيَّة وصفية، ص73.
- (7) ينظر: الثعالبي: فقه اللُّغة وسرِّ العربيَّة، 151/1.
- (8) مريم، آية 24.
- (9) ينظر: ابن دريد: جمهرة اللُّغة، 43/1، أبو الطيب اللُّغوي: الإبدال، 231/2، ابن جنِّي: سرِّ صناعة الإعراب، 206/1، ابن منظور: لسان العرب، [كشش]، 101/12، البغدادي: خزنة الأدب، 464/11.

فَعَيْنَاش عَيْنَاهَا وَجِيدُش جِيدُهَا . سِوَى أَنَّ عَظَمَ السَّاقِ مِنْشِ دَقِيقُ .

هذا، وقد راق للدكتور إبراهيم أنيس الوصف الأول، حين قال: «فالذين رَووا هذه الظاهرة بين اللهجات العربية القديمة، وقصروها على قلب كافِ المؤنثة إلى شين كانوا أقرب الجميع إلى الصواب»⁽¹⁾، على أنه رفض فكرة أن يكون هذا الإبدال مرهوناً بالوقف فقط، إذ «ليس له ما يبرِّره من الناحية الصوتية»⁽²⁾. أما الوصف الثاني، وهو زيادة شين بعد تلك الكاف، فليس هناك ما يسوغ أن تتصل الكاف بصوت آخر، بل الأقرب إلى القوانين الصوتية وطبيعة اللهجات أن يحلَّ صوت محلَّ آخر⁽³⁾، عدا أن أمثلته كانت مُصطنعة من وضع بعض القدماء.

لا بل قد يلمس الباحث من الأشعار التي رُويت لهذه الظاهرة، ما يُشيرُ إشارة واضحة على أن العرب -قديمًا- قد أبدلوا الكاف شيئاً [چ]، دون أن يكون هذا الصوت ضميراً للمؤنث المُخاطب، إذ يقول ابن جنِّي ما نصُّه: «قرأت على أبي بكرٍ محمَّد بن الحسن، عن أبي العباس أحمد بن يحيى لبعضهم:

وَإِنْ نَأَيْتِ جَعَلْتِ تُدْنِيشِ . وَإِنْ تَكَلَّمْتِ حَتَّتِ فِي فِيشِ

وَإِنْ نَأَيْتِ جَعَلْتِ تُدْنِيشِ

فَشَبَّهَ كَافَ الدَّيْكِ لِكَسْرَتِهَا، بِكَافِ ضَمِيرِ الْمُؤنَّثِ»⁽⁴⁾، ومعنى ذلك أن العربي -قديمًا- قد نطق الكاف صوتاً مزجياً، بغضِّ النظر عن موقعها وماهيتها.

أما الصوت المُبدل من الكاف في الكشكشة، فقد تصدَّى القدامى والمحدثون لوصفه، إذ نجد في نصوص القدامى تحديداً يتعلَّق به، فهو في أغلب تلك النصوص صوتُ الشين⁽⁵⁾. وفي المقابل، فقد حدَّد ابنُ دُرَيْدٍ ذلك الصوت بأنه «بين الشين والجيم»⁽⁶⁾، ولعلَّ أحمد بن فارس كان أكثرَ دقَّةً في تحديده، حيث عدَّه: «الحَرْفُ الَّذِي بَيْنَ الشَّيْنِ وَالْجِيمِ وَالْيَاءِ»⁽⁷⁾. ولهذا، يُلاحَظُ من وصف القدامى لصوت الكشكشة أن الأصوات المُشتركة كلها تقترب -في صفاتها ومخارجها- من صوتِ الكافِ الطَّبِقيِّ.

في حين يرى الدرس الصوتي الحديث أن صوت الكشكشة يوافق صوت "تشن" [ch] في كلمة [chair] في اللغة الإنجليزية، فقد ذهب د. إبراهيم أنيس إلى أن ما سمعه الرواة ليس شيئاً،

(1) إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، ص108.

(2) المرجع نفسه، ص108.

(3) ينظر: المرجع نفسه: ص107، وانظر كذلك: أحمد علم الدين الجندي: اللهجات العربية في التراث، القسم الأول في النظامين: الصوتي والصرفي، ص361.

(4) ابن جنِّي: سرُّ صناعة الإعراب، 1/206-207.

(5) ينظر: سيبويه: الكتاب، 4/199.

(6) ابن دريد: جمهرة اللغة، 1/42.

(7) ابن فارس: الصحابي، ص30.

وإنما هو [نش] بدليل شيوع هذه الظاهرة في اللهجات العربية الحديثة⁽¹⁾، ومن ثم وصفه مُعتمداً على التجارب الصوتية الحديثة بأنه «يتكوّن من عنصرين: أولهما ينتمي إلى الأصوات الشديدة، وهو ما يُشبهُ التاء، وثانيهما إلى الأصوات الرخوة، وهو ما يُشبهُ الشين»⁽²⁾. وفي المقابل، اكتفى إسماعيل عميرة بوصفه قائلاً: هو «صوتٌ مُشربٌ بالشين»⁽³⁾.

وقد حاول بعض علماء الأصوات المعاصرين تعليل اختيار القدامى رمز الشين تعبيراً عن هذه الظاهرة، فذهبوا إلى أنّ علّة ذلك هي عدم وجود رمز لهذا الصوت في النظام الكتابي العربي⁽⁴⁾، أو أنّ القدماء «سمعوا الإزدواجية في الكاف، ولم يستطيعوا كتابتها بالضبط، فدلوا عليها مرّةً بالكاف والشين، ومرّةً أخرى بالشين وحدها»⁽⁵⁾ علاوةً على أنّ ملامح التقسي في صوت الشين وطغيانه على الصوت المزجيّ، هو ما جعل القدامى يختارون له رمز الشين، وقد لاحظ أسلافنا القدامى شيئاً من هذا عندما علّوا وقوع ظاهرة الكشكشة في اللهجات العربية، فقال المُبرّد: «أرادوا البيان في الوقف؛ لأنّ في الشين تقسيّاً»⁽⁶⁾.

تأسيساً على ما تقدم، يمكن للباحث تفسير نقل مخرج الكاف من الطّبق إلى الغار، في لهجة محافظة طوباس الفلسطينية، من باب تخفيف الجهد العضليّ المبدول أثناء النطق، إذ إنّ الكاف صوتٌ انفجاريّ ينحبسُ الهواء معه في مجراه أثناء النطق به؛ نتيجة التقاء عضوي النطق، وهما: مؤخّرة اللسان، والطّبق، فكان الخلاص من هذا الملمح الانفجاريّ الذي في الكاف، بقلبها صوتاً مزجياً [tʃ] يبدأ بالانفجارية وينتهي بالاحتكاكية، وقد أوضح ذلك إسماعيل عميرة بقوله: «لقد كان بعض العرب على تفاوتٍ في ضيقهم ذرعاً بالصفة الانفجارية في الكاف ... وأنّ بعضهم كان يُكسّكسها، أي يُنهي الصوت الانفجاريّ بصوت احتكاكيّ، هو الشين»⁽⁷⁾. وتمّ تفسير آخر يرجحه الباحث- وهو أنّ أبناء اللهجة، وبما أنّهم ينطقون القاف [q] كافاً [k]، قد اضطروا إلى الفرار من الكاف الفصيحة [k] إلى الجاف المركبة [tʃ]؛ لكون الكاف قد شغلت بالقاف.

بقي أنّ نشير إلى أنّ صوت الجيم الفصيحة المُركّب، الذي احتفظت به اللهجة المدروسة، اختلف علماء الأصوات المعاصرون بشأنه، وقد ذهب بعضهم إلى أنّ أصله القديم كان بغير تعطيش كالجيم القاهرية [g]، طرأ عليه تغييرٌ يتمثلُ بانتقال مخرجه من الطّبق إلى الأمام قليلاً تُجاه الغار، فنحوّل من صوت بسيطٍ إلى صوت مُركّبٍ [dʒ]، يبدأ انفجاريّاً كصوت الدال [d]، وينتهي احتكاكياً كالجيم الشامية [j]. ومن أصحاب هذا الرأي (بروكلمان)، حيث يقول: «احتفظت العربية القديمة، في الغالب، بالأصوات الأصلية، غير أنّ صوت الجيم [g]، الذي لا يزال يحتفظ بنطقه القديم في اللهجة التي يتكلّم بها الآن في مصر، قد تحوّل في العربية القديمة،

(1) ينظر: إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، ص109، عبدالصبور شاهين: في التطور اللغوي، ص13-14.

(2) إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، ص108.

(3) إسماعيل عميرة: تطبيقات في المناهج اللغوية، ص204.

(4) أمنة الزعي: التغيير التاريخي للأصوات، ص66.

(5) رمضان عبدالنوّاب: فصول في فقه اللغة، ص148.

(6) البغدادي: خزنة الأدب، 461/11.

(7) إسماعيل عميرة: بحث في الاستسراق واللغة، ص211.

كما في معظم اللهجات العربية الحديثة، إلى صوتٍ مَعَوَّرٍ مُرَكَّبٍ من جزأين: أحدهما شديدٌ، والآخر رِخْوٌ»⁽¹⁾.

وقد استدلَّ (إنو ليمان) على كون الجيم الفصيحة مُتَطَوَّرَةً عن الجيم القاهريّة بإجراء مُقارِنَةٍ للكلماتِ العربيّة التي تحتوي على الجيم مع نظائرها في اللغات الساميّة⁽²⁾، فوصل إلى استنتاجٍ مفاده: «أنَّ صوتَ الجيم المُزْدَوَجِ ليس أصلياً في اللّغة العربيّة القديمة، وإنّما هو مُتَطَوَّرٌ عن جيم تشبه نطق المصريين لهذا الصّوت. والدليل على ذلك مُقارِنَةُ اللّغاتِ الساميّة الأخرى؛ كالعبريّة، والسريانيّة، والحبشيّة، فصوتُ الجيم، في هذه اللّغات، صوتٌ شديدٌ يُشْبِهُ نطق المصريين»⁽³⁾. وقد حدث هذا التّطوُّرُ نَتِجاً لقانون الأصوات الحنكيّة، بمعنى أنّه تمّ -في البداية- مع الجيم القاهريّة التي تليها حركةٌ أماميّةٌ ثمّ عمّ الحركات جميعاً⁽⁴⁾.

وفي منظور الباحث، أنّ هذا الرأى الذي ذهب إليه بعض علماء الساميات لا يمتُّ إلى الحقيقة بصلّة. وخير دليل على ذلك أنّ صوتَ الجيم لو كان يُنطقُ بما يُشْبِهُ الجيم القاهريّة، لكان مخرّجه في وَصْفِ القدماء مخرّج الكاف، لا مخرّج الشين والياء. يقول سيبويه: «ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرّجُ الجيم والشين والياء»⁽⁵⁾. فهذا القولُ إذاً، ينفي قطعياً قطعياً أنّ وصفهم للجيم يمكن أن يُصَرَفَ إلى الجيم القاهريّة. يُضَافُ إلى هذا أنّ سيبويه وغيره من القدماء قد عرفوا الجيم الشبيهة بالجيم القاهريّة، وجعلوها من الحروف غير المُستَحْسَنَةِ أو غير المُستَمَلَحَةِ، حيث يقول: «وتكون اثنتين وأربعين حرفاً بحروف غير مُستَحْسَنَةٍ ولا كَثِيرَةٍ في لُغَةٍ من ترتضي عربيته، ولا تُستَحْسَنُ في قراءة القرآن، ولا في الشعر، وهي: الكافُ التي بين الجيم والكاف، والجيمُ التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين...»⁽⁶⁾.

خاتمة

وبعد، فقد خَلَصَتْ هذه الدراسة التي تناولت ظاهرة الانتقال المخرّجي التي طرأت على أصوات: الضاد والقاف والكاف في لهجة محافظة طوباس الفلسطينية إلى نتائج عدّة، أهمّها:

1. أنّ تطوُّرَ الصّوتِ اللُّغويِّ بانتقاله مخرجه يكوّنُ بأحد طريقتين: إمّا بانتقال المخرّجِ إلى الوراء أو إلى الأمام؛ باحثاً الصّوتُ في انتقاله عن أقرب الأصوات شَبْهاً به من الناحية الصّوتية.

- (1) بروكلمان: فقه اللغات الساميّة، ص48.
- (2) ينظر: إنو ليمان: بقايا اللهجات العربيّة في الأدب العربي، ص1-2.
- (3) رمضان عبدالنّوّاب: المدخل إلى علم اللّغة، ص52.
- (4) ينظر: إنو ليمان: بقايا اللهجات العربيّة في الأدب العربي، ص2.
- (5) سيبويه: الكتاب، 433/4.
- (6) المصدر نفسه، 432/4.

2. أن الانتقال المخرجي الذي طرأ على أصوات: الضاد والقاف والكاف في اللهجة المدروسة، تمثل بتقدم مخرجها إلى الأمام، فصادفت أقرب الأصوات شبهها بها فانقلبت إليه. فصوت الضاد انتقل مخرجُه الأسناني اللثوي إلى الأمام قليلاً، باتجاه المخرج الأسناني، فأصبح يُنطق طاءً أسنانيةً فصيحةً، وصوت القاف انتقل مخرجُه اللثوي إلى الأمام قليلاً، نُجاء الطَبَق، فاتَّخَذَ بهذا الانتقال صورتين اثنتين: الأولى: تتمثل في نطقه كأفًا طبقيةً مهموسة، والثانية: تتمثل في نطقه غينا طبقيةً مجهورة. أما صوت الكاف فانتقل مخرجُه -في اللهجة- من الطَبَق إلى الأمام قليلاً نُجاء الغار، حتى أصبح يُنطق جافًا غاريةً مُرَكِّبةً.
3. أن الانتقال المخرجي للأصوات موضوع الدراسة خضع في الأعم الأغلب لقوانين صوتية صارمة؛ كقانون الجهد الأقل، وقانون السهولة والتيسير، وقانون الأصوات الحكيمة. ولكنه سرعان ما تحول إلى شكلٍ من أشكال التغير التاريخي، الذي يعتبر الصوت في جميع سياقاته، حتى يخفي هذا الصوت ويحل مكانه الصوت المُبدل منه.
4. أن الكشكشة التي سمعت من السنة بعض القبائل العربية القديمة ونقلها لنا الرواة، تختلف عما نسمعه الآن في لهجة محافظة طوباس من إبدال الكاف صوتًا مُرَكِّبًا أو مزجيًا [tʃ] على هيئة الصوت الفارسي [چ]، أو الصوت الإنجليزي {ch}. فعلى وجه الدقة، يبدأ هذا الصوت انفجارياً، وهو ما يُشبه صوت التاء، وينتهي احتكاكياً، وهو ما يُشبه صوت الشين.
5. أن الكشكشة في اللهجة المدروسة لم تكن مُطَرِّدة، إذ اقتصرَت -بإدائ الأمر- على كاف المُخاطبة المُؤنثة، فكان لهذه الظاهرة في حال التأنيث وظيفهٌ نحويةٌ أو دلالةٌ مورفيميةٌ، وهي التفريق بين المُذكَر والمُؤنث. ثم تطوَّر الأمر، فأصبحت اللهجة تعمد إلى الكشكشة حين تجاور الكاف حركةً أماميةً -كسرة أو فتحة- وذلك تبعاً لقانون الأصوات الحكيمة. ومن ثم أصبحت تلك الظاهرة مُطَرِّدة في الأعم الأغلب في كل كاف، ما لم تكن للمُخاطب المُذكَر.
6. أرجع الباحث حدوث ظاهرة الكشكشة إلى أن أبناء اللهجة، وبما أنهم ينطقون القاف [q] كأفًا [k]، قد اضطروا إلى الفرار من الكاف الفصيحة [k] إلى الجاف المُرَكِّبة [tʃ]؛ لكون الكاف قد شغلت بالقاف.
7. وجد الباحث أن التحققات النطقية المختلفة للأصوات الثلاث، التي تعرضت للانتقال المخرجي، لها أصولٌ في التراث اللهجي العربي القديم؛ ولذا فقد عرض الباحث أمثلةً من ذلك بالعودة إلى كتب التراث القديم.

Sources and references

Sources

- The Holy Quran
- Al-Asterbathe, Radi Al-Din Muhammad Ibn al-Hasan: Explanation of AL-Shafiya, Supervised by: Muhammad Muhy Al-din Abdul Hamid and others, Dar Al-Kotob Al-Elmiya, Beirut, Fifth edition. 1982.
- Ibn Al-Nbari, Abu Al-Barakat: Zinet AL-Fudala in the difference between the sound "D" and "th", supervised by" Dr: Ramadan Abd Al-Tawab, Dar Al-Amaneh and Al-Resala institution, Beirut, First edition, 1971.
- Al-Tha'ibi, Abd Al-Malek Ibn Muhamad :The Doctrine of language and Arabic secret, supervised by"Yasin Al-Ayoubi, Al-A'sriya's library, Sidon, Second edition, 2000.
- Ibn Al-Jazri, Muhamad Ibn Muhamad Al-Dimshqi: AL-Nashr in the ten readings. Supervised by : Ali Ibn Muhamad Al-Daba', Dar Al-Kotob Al-Almiyeh, Beirut.
- Ibn Janni, Abu Al-Fateh Othman:
 - AL-Khasais: Muhamad Ali Al-Najjar, The Scientific library.
 - The secret of Bedouins' industry, Supervised by: Dr Hasan Hindawi, Dar Al-Qalm, Damascus ,Second edition, 1993.
- Ibn Khalweih, Al-Hussien Ibn Ahmad:
 - The express of thirty Surat from the Holy Qur'an, Al-Hilal's library, Beirut, 1985.
 - The brief of irregulars from the Qur'an, From "Al-Badea' book", edited by: Bragshtaser , Al-Mutanbi's library, Cairo.

- Ibn Durid, Muhamad Ibn AL-Hasan: The bags of language, supervised by: Ramzi Ba'lbaki , Dar Al-Eilm, Beirut, First edition ,1987.
- Al-Zujaji, Abd Al-Rahman Ibn Ishaq: The cannibalization, punishment and the parallels, supervised by Ezz Al-Din Al-Tanokhi, published by the deployment of the Arab Academy of Science, Damascus, 1962.
- Ibn Siraj, Muhamad Ibn Sahel: The assets in Al-Naho, supervised by: Abd Al-Hussien Al-Fitli, Al-Resaleh institution, Beirut, Third edition 1996.
- Ibn Al-Sukiet, Yacoub Ibn Isahac: the transposition and cannibalization, published by: Dr. August Hefner, the printing press of the Catholic Jesuit, Beirut, 1903.
- Sibawayh, Amr Ibn Othman Ibn Qanbar: The book, supervised by: Abdul Salam Haroun, Khanji Library, Cairo, third edition. 2004
- Suyuti, Abd Al-Rahman Jalal Al- Din: AL-MUZHAR of the language and its types, Supervised by: Mohamed Abu Al -Fadl Ibrahim and others, Heritage House Library, Cairo, third edition, without date.
- Ibn Asfour Al-Ishbilim, Ali Ibn Mu'men: AL-Mumta in Morphology: Supervised by Dr. Fakher Al- Din Qabwa, Dar Al Ma'refeh, Beirut, First edition .1987 .
- Faraaheedi, Khalil Ibn Ahmed: Al Ain, supervised by Abdul hamid Hindawi, Scientific Library, Beirut, First edition .2003
- Fura', Abu Zakaria Yahya ibn Ziyad: Ma'ni of the Qur'an, the world of books, Beirut, third edition .1983.
- Qaisi, Makki Ibn Abi Talib: AL-Rea'ya to improve reading achievement and word recitation, supervised by: dr. Ahmed Hassan Farhat, Dar Ammar, Oman, third edition .1996.
- AL-Lugawi, Abu Tayeb Abdel Wahid Ben Ali: substitution, supervised by: Ezz Al-Din Al -Tnokhi, the Arabic Language Academy, Damascus, without edition, 1961.
- Al-Mubared, Muhammad Ibn Yazid: AL-Muktadab, supervised by: Muhamad Edeimh, Al-Ahram Commercial Press, Cairo, 1994.

- Ibn Manthor, Abou El Fadl Jamal al-Din bin Makram: Lisan Al-Arabs, supervised by: Amin Abd al-Wahhab and Muhammad al-Obeidi, Dar revival of Arab Heritage Foundation, the Arab history, Beirut, third edition .1999.
- Ibn Ya'ish, Muwaffaq al-Din Abu Al-Bqaa' Ibn Ali: AL-Mufasssal explanation, supervised by : Emil Badea' Yacob, Dar scientific books, Beirut, First edition , 2001
- Estitiyyah, Samir Sharif:
 - Linguistic votes "vision of membership and accented and physical", Dar Wael for publishing, Oman, First edition. 2003.
 - Linguistics "field, and function, and the curriculum", the modern world of books, Irbid, second edition. 2008.
- Al-Antaki, Muhammad: AL-Wajeez of philology, Dar Al-Shouroq, Beirut, third edition. 1969.
- Anis Ibrahim:
 - Linguistic sounds, the renaissance of Egypt library, Cairo .
 - In Arabic dialects, the Anglo-Egyptian Press, Cairo, 2003.
 - Language between national and global, Dar Al-Ma'refih, Cairo, 1970.
 - Poetry Music, the Anglo-Egyptian Library, Cairo, second edition.1952 .
- Pasha, Ahmed Timor: Arab dialects, the Egyptian General Book Authority, Cairo, 1973.
- Bergstrass: The evolution of grammar, edited by: dr. Ramadan Abdel Tawab, Khanji library, Cairo, second edition.1994.
- Brockelmann, Carl: the jurisprudence of Semitic languages, translated by: d. Ramadan Tawab, University of Riyadh, Riyadh, 1977.
- Basher, Kamal:
 - Phonology, Dar Al-Ghreeb for printing and publishing, Cairo, 2000.
 - Sociolinguistics, Dar Al-Ghreeb for printing and publishing, Cairo, 1995.

- Pi, Mario: the foundations of linguistics, translated by: Ahmed Mukhtar, the world of books, Cairo, eighth edition. 1998.
- Al-Jondi, Ahmed Alam Al-ddine: Arabic dialects in the heritage, the first section in the two systems: voice and morphological, Arab Book, 1983.
- Hassan, Tamam: The curriculum Search in the language, the Anglo-Egyptian Library, Cairo, without date, 1990.
- Khryosh, Abdul Rauf: Palestinian dialects sound study, Dar Osama, Oman, First edition. 2004.
- Al-Dabbagh, Mustafa Murad: Our country Palestine, Dar Al-Huda, Kafr Qara, 1991, Part 2, Section 2.
- Zoubi, Amineh Saleh: The historical change of voices, Dar cultural book, Irbid - Jordan, 2008.
- Al-Saran, Mahmoud: linguistics, Arab Renaissance Publishing, Beirut, without date and edition.
- Shaheen, Abdul Saboor: In language development, the letter Institution, Beirut, second edition. 1985.
- Al-Shaib, Fawzi: the impact of sound laws in the construction of the Arabic word, the modern world of books, Irbid, Jordan, First edition .2004.
- Abdul Baqi, Dahi: The language of Tamim descriptive historical study, the General Authority for the princely presses, Cairo, 1985.
- Abdel Tawab, Ramadan:
- Research and articles in language, Khanji library in Cairo, Riyadh and Dar al-Rifai, First edition .1982.
- Language development and laws, Khanji Library, Cairo, third edition.1997.
- Chapters in philology, Khanji Library, Cairo, sixth edition. 1999.
- Public tune and linguistic evolution, Zahra Library, Cairo, second edition .2000.
- Introduction to linguistics, Khanji Library, Cairo, third edition. 1997.

- Amayreh, Ismail:
 - Research in Orientalism and language, the letter Institution, Beirut, First edition .1996.
 - Applications in the language curriculum, Dar Wael for printing and publishing, Oman, 2000.
- Omar, Ahmed Mukhtar: the study of linguistic sound, the world of books, Cairo, 1997.
- Ghalib, Ali Nasser: the tone of the tribe Asad, Dar general of Cultural Affairs, Baghdad, First edition .1989 .
- Fleche, Henry: Arabic eloquence: d. Abdul Saboor Shaheen, the Catholic press, First edition, Beirut, 1966.
- Kantino, Jan: lessons in the science of Arab voices, translation: Saleh Alqurmada, Tunisia, 1966.
- Merhi, Abdul Qadir: Voice term when the ancient Arab scholars in the light of the knowledge of the contemporary language, Mutah University, Scientific Research, First edition .1993.
- Matar, Abdulaziz: The tone of the Bedouins in the northern coast of the Arab Republic of Egypt Language study, Dar Al-Ma'rifeh, 1981.
- Moussa, Abdel Muti Nimer: Arabs' metamorphic Sounds and their relationship sense, Dar Canada, Jordan, First edition.

Dissertations and periodicals:

- Amayreh, Halima: The Voice of "Kaf" between heritage books and its modern analysis, *Journal of Jordan Academy of Arabic*, No. 67.2004.
- Nouri, Mohammad Jawad:
 - *Voice and morphological study of the tone of the Palestinian city of Nablus*, (Unpublished MA Thesis), Faculty of Science , Cairo University, Cairo, Egypt, 1979.
 - In the voice of evolution, the study of the historical method, *magazine-Najah University Research (Humanities)*, Nablus, No. 5.1990 .

- Shawahneh, Said: The checks of accents for the voice of “Kaf” and “Qaf” in the Palestinian vernacular, *Journal of Al-Azhar University (Humanities Series)*, Gaza, Volume 11, Issue 1, 2009.
- Litman, Innu: the remnants of Arabic dialects in Arabic literature, *Journal of the Faculty of Arts, Cairo University, Cairo*, Volume 10, Part 1.

جدول رموز الكتابة الصوتية

الرمز الصوتي	الرمز العربي	وصف الصوامت الواردة في البحث
b	ب	صامت شفوي ثنائي انفجاري مجهور
m	م	صامت شفوي ثنائي أنفي مجهور
f	ف	صامت شفوي أسناني احتكاكي مهموس
ð	ظ	صامت أسناني احتكاكي مجهور مُفخّم
d	د	صامت أسناني لثوي انفجاري مجهور مُرَقّق
t	ط	صامت أسناني لثوي انفجاري مهموس مُفخّم
d	ض	صامت أسناني لثوي انفجاري مجهور مُفخّم
z	ز	صامت أسناني لثوي صفيري مجهور مُرَقّق
ʒ	ژ	صامت أسناني لثوي صفيري مجهور مُفخّم
s	س	صامت أسناني لثوي صفيري مهموس مُرَقّق
r	ر	صامت لثوي مكرّر مجهور
l	ل	صامت لثوي جانبي مجهور
n	ن	صامت لثوي أنفي مجهور
dʒ	ج	صامت غاري مركّب مجهور
tʃ	چ	صامت غاري مُرَكَّب مهموس
y	ي	نصف صامت أو نصف حركة غاري مجهور
ɣ	غ	صامت طبقي احتكاكي مجهور
x	خ	صامت طبقي احتكاكي مهموس
k	ك	صامت طبقي انفجاري مهموس
w	و	نصف صامت أو نصف حركة طبقي مجهور
q	ق	صامت لهوي انفجاري مهموس
ħ	ح	صامت حلقي احتكاكي مهموس
ʕ	ع	صامت حلقي احتكاكي مجهور
ʔ	ء	صامت حنجري انفجاري لا مجهور ولا مهموس
<u>طويلة</u>	<u>قصيرة</u>	<u>وصف الحركات الواردة في البحث</u>
ii	i	حركة أمامية ضيقة (الكسرة الخالصة)
uu	u	حركة خلفية ضيقة (الضمة الخالصة)
aa	a	حركة أمامية واسعة (الفتحة الخالصة)
ee	e	حركة أمامية نصف ضيقة (الكسرة المُمالة)
oo	o	حركة خلفية نصف ضيقة (الضمة المُمالة)